بسم الله نبدأ وبه نستعين

محتوى الأخلاق الإسلامية وآداب المهنة

الفصل الدراسي الثاني 1435هـ

دكتور المادة/ أ.د عبدالله الديرشوي

المحاضرة الأولى

تعريف الخُلُق ،موضوعه ،أقسامه ،مكانته في الإسلام

أولاً- تعريف الخُلُق:

الخُلُق لغة: بضم الخاء واللام ، الطبع والسجية. أي ما جُبل عليه الإنسان من الطَّبع. وجمعه أخلاقٌ.

وهو - أي الخُلُق – يمثل صورة الإنسان الباطنة، التي هي نفسه التي بين جنبيه وأوصافها ومعانيها المختصَّة بها. أو بتعبير آخر: الجانب المعنوي في شخصية الإنسان.

كما أن الخَلْق يمثل صورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها. أو بتعبير آخر: الجانب المادي في شخصية الإنسان.

واصطلاحاً: حالٌ للنفس راسخةٌ تصدر عنها الأفعال من خير أو شر بسهولةٍ ويسر من غير حاجةٍ إلى فِكْرٍ و رَوِيَّةٍ. وبهذا المعنى ورد قول الله سبحانه في مدح نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم: 4).

وقد يطلق الخُلُق على نفس المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على الوجه الأكمل. وبهذا المعنى ورد قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)

شرح التعريف: التعريف الأخير -نعني المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني- واضح لا لبس فيه ؛ فالصدقُ والسخاءُ والرحمةُ والعدلُ وحبُ الخير للناس... جميعها أخلاقٌ حميدةٌ، وفضائلُ مُسلَّمةٌ، يسعى عقلاء الناس للتحلي بها، وتربية أولادهم عليها.

وأما التعريف الأول فهو الذي يكتنفه بعض الغموض، ويحتاج إلى توضيح. فنقول في بيان ذلك:

قولهم : (حالٌ): أي هيئةٌ أو صفةٌ للنفس الإنسانية. وبهذا الاعتبار يقال: فلانٌ خلقه حميد. أي: الصفةُ التي في نفسه -والتي هي وراء تصرفاته السلوكية- حميدةٌ.

وقولهم: (راسخةٌ): أي؛ ثابتة بعمق. وهو ما يعني أن الأفعال تتكرر من صاحبها على نسق واحدٍ حتى تصبح عادةً مستقرةً لديه. ومن ثمَّ كان مَنْ يُنفق المال مرةً أو مرتين أو ثلاثٍ على المحتاجين لا يوصف بخُلُق السخاء والجود ،بل لابد من تكرره منه بحيث يصبح عادة له.

وقولهم: (من غير حاجةٍ إلى فِكرٍ ورَوِيَّةٍ) : أي من غير تَكَلُّفٍ أو مجاهدةِ نفس ،بل بسهولة ويسر ،وبطريقة تلقائية.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله: "الخَلْق والخُلُق عبارتان مستعملتان معاً ،يقال: فلانٌ حسنُ الخُلُق والخَلْق. أي: حسن الباطن والظاهر. فيراد بالخَلْق الصورة الظاهرة ،ويراد بالخُلُق الصورة الباطنة. وذلك لأن الإنسان مركبٌ من جسدٍ مدرك بالبصر ،ومن روح ونفس مدركٍ بالبصيرة. ولكل واحد منهما هيئةٌ وصورةٌ: إما قبيحةٌ ،وإما جميلةٌ. فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر ،ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه ،إذ قال تعالى: {إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ} (ص: 71-72) ،فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين ،والروح إلى رب العالمين ،والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد".

ثانياً- موضوع علم الأخلاق:

ليس جميع ما يستقر في النفس من الصفات من قبيل الأخلاق؛ بل منها ما هو من قبيل الغرائز والدوافع ولا صلة لها بالخلق. وما يميز بين الاثنين هو؛ أن الأخلاق يبحث في الأحكام القيمية المتعلقة بالأعمال التي يمكن وصفها بالخير أو الشر ،أو بالحسن أو القبح. والغرائز والدوافع حاجات فطرية ،جَبَلَ الله الإنسان عليها كحاجته للأكل والشرب والزواج والنوم ... وهذه لا تستوجب لصاحبها مدحاً أو ذماً ،كما لا يترتب على إشباعها ثواباً أو عقاباً.

فإن حصل ومُدِحَ الإنسانُ أو ذُمَّ على تعاطيه مع بعض تلك الغرائز أو الدوافع ،كان المقصود ليس نفس الفعل ،وإنما الطريقة التي اتبعها صاحبها في تلبية تلك الحاجة ،أو إشباع تلك الرغبة. فمن يأكل لدفع الجوع عن نفسه لا يُمدح ولا يُذم على نفس فعل الأكل ،وإنما يُمدح أو يُذمُّ على طريقته في الأكل. فإن أكل مثلاً مما يليه ،وبهدوءٍ ،ومضغ الطعام جيداً ،وبدأ باسم الله ،وانتهى بحمد الله ،حُمِد على فعله هذا.

وإن أكل بشراهةٍ ،وأدخل اللقمة على اللقمة ،وجالت يده في القصعة ،ذُمَّ على فعله ذاك. وهكذا يقال في تعاطيه مع جميع الدوافع والغرائز من شراب ونكاح ونوم وحبٍ للمال والولد.

ثالثاً- أقسام الخلق:

يمكن تقسيم الخلق إلى قسمين اثنين باعتبارين مختلفين:

أولهما:باعتبار الفطرة والاكتساب: وينقسم إلى:

- أخلاق فطرية:جَبَلَ الله الإنسان عليها. أي أنها هبةٌ ومنحةٌ من الله تعالى ،وليس للإنسان أي دور في اكتسابها. مثال ذلك ما جاء في حديث أشج عبد القيس - وكان وافدهم وقائدهم ورئيسهم وعبد القيس قبيلة- حيث قال له النبي صلى الله عليه وسلم: (إنَّ فِيكَ خَلَّتَيْن يُحِبُّهُمَا اللهُ الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ). قال يا رَسُولَ اللَّهِ: أنا أتَخَلَّقُ بهمَا ،أمْ اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قال: (بَلْ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا) قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي جَبَلَنِي على خَلَّتَيْن يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ". قال النووي: " أما الأشج فاسمه المنذر بن عائذ ... وأما الحلم: فهو العقل. وأما الأناة: فهي التثبت وترك العجلة. ... وسبب قول النبى صلى الله عليه وسلم ذلك له ،ما جاء فى حديث الوفد أنهم لما وصلوا المدينة بادروا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ،وأقام الأشج عند رحالهم ،فجمعها وعقل ناقته ،ولبس أحسن ثيابه ،ثم أقبل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ،فَقَرَّبَه النبى صلى الله عليه وسلم ، وأجلسه إلى جانبه ،ثم قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم: تبايعون على أنفسكم وقومكم؟ فقال القوم: نعم. فقال: الأشج: يا رسول الله إنك لم تزاول الرجل عن شيء أشدّ عليه من دينه. نبايعك على أنفسنا ،ونرسل من يدعوهم ،فمن اتَّبَعنا ،كان مِنَّا ،ومَنْ أبى قاتلناه. قال: صدقت. (إن فيك خصلتين ...) الحديث قال القاضي عياض: فالأناة: تربصه حتى نظر فى مصالحه ولم يعجل. والحلم هذا القول الذى قاله ،الدال على صحة عقله ،وجودة نظره للعواقب".

- أخلاق مكتسبة: يسعى الإنسان في تحصيلها بالتدريب والممارسة العملية،ومن خلال مجاهدته لنفسه. ومنه قول النبي ﷺ: (إنما العلم بالتعلم) ،وفي حديث آخر (وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله ،وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله).

ثانيهما:باعتبار القبول وعدمه شرعاً: وبهذا الاعتبار ينقسم الخلق إلى:

خلق محمود:وهو حسن الأدب،وتنتج عنه أقوالٌ وأفعالٌ جميلةٌ عقلاً وشرعاً.

خلق مذموم:وهو سوء الأدب،وتنتج عنه أقوالٌ وأفعالٌ قبيحةٌ عقلاً وشرعاً.

رابعاً: مكانة الأخلاق في الإسلام:

تمثل الأخلاق جوهر رسالة الإسلام ، بكل ما تحمله كلمة الأخلاق من معنى.

فقد حث الإسلام على الفضائل وحذر من الرذائل في نصوص لا تحصى من القرآن والسنة،ووصل فيها إلى أعلى درجات الإلزام، ورتب عليها أعظم مراتب الجزاء، ثواباً وعقاباً، في الدنيا والآخرة. فالرسول ﷺأخبرنا أن (الصدق يهدي إلى البر ،والبر يهدي إلى الجنة. والكذب يهدي إلى الفجور ،والفجور يهدي إلى النار) ،وقال: (دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها ،ولا هي دعتها تأكل من خشاش الأرض) ،و(غفر الله لبغي في كلب سقته) ،و(المرء يبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل ،صائم النهار).

وبلغ من عناية الإسلام بالأخلاق أن الله سبحانه حين أثنى على نبيه محمد ﷺ في القرآن الكريم اختار الثناء عليه من جهة أخلاقه ليُعلمنا أنه لا أبلغ ولا أرفع من هذه الصفة. فقال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم:4).

وجعل الرسول ﷺ الغاية والهدف من رسالته إتمام البناء الأخلاقي الذي بدأه من سبقه من الأنبياء والمرسلين ،فقال فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق) ولعله يشير بذلك إلى أنه ﷺ كان المتمم والمكمل لرسالات من سبقوه من الأنبياء عليهم السلام ،وما بعثوا به من القيم والفضائل ،كما أخبر بذلك ﷺ فقال: (إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ من قَبْلِي ،كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ ،إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ من زَاوِيَةٍ ،فَجَعَلَ الناس يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ له وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَةُ). قال: (فَأَنَا اللَّبِنَةُ ،وأنا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ).

وحسن الخلق من أكثر الوسائل التي توصل المرء إلى الفوز بمحبة الله ورسول ه ، والظفر بقربه يوم القيامة ،حيث يقول ﷺ: (إِنَّ من أَحَبِّكُمْ إلي وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يوم الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا) ،ولما سئل "مَنْ أَحَبُّ عِبَادِ اللَّهِ إلى اللَّهِ؟" أجاب: (أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً).

هذا من حيث مكانة الأخلاق وأهميتها بصورة عامة.

وأما من حيث مكانة الأخلاق بين علوم الشرعفإن كثيراً من الباحثين المعاصرين يقسمون ما جاء به الإسلام من تشريعات وأحكام إلى شعب أربعة: عقائد ،وعبادات ،ومعاملات ،وأخلاق. وربما قسمها بعضهم إلى ثلاث شعب فدمجوا بين العبادات والمعاملات تحت اسم الشريعة ،فقالوا: عقيدة ،وشريعة ،وأخلاق.

وكلا التقسيمين إنما يصح بالنظر إلى الجهة الغالبة في تلك القضايا والمسائل التي تناولتها نصوص الشرع ،وإلا فعند التأمل وإنعام النظر نجد أن هذه الشعب الثلاث أو الأربع لا تنفك عن بعضها ،وأنها متداخلة متعاضدة كالبنيان يشد بعضها بعضاً. فالأخلاق لا تنفك عن العقيدة والعبادات والمعاملات ،وفي نفس درجتها ومستواها من الأهمية.

- ففي باب العقائد نجد أن الإسلام يربط بين الإيمان والأخلاق ربطاً محكماً فيجعل حسن الخُلق علامة كمال الإيمان والتفاضل فيه ،فيقول ﷺ: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا) ،ويضفي على التوحيد صبغة خُلُقية، فيعتبره من باب "العدل" وهو فضيلة خلقية، كما يعتبر الشرك من باب "الظلم" وهو رذيلة خلقية ،فيقول سبحانه: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} (لقمان: 13) ،وذاك لأنه وضعٌ للعبادة في غير موضعها ، وتوجه بها إلى من لا يستحقها. بل اعتبر القرآن الكريم الكفر بكل أنواعه ظلماً ، فقال تعالى: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (البقرة:254).

- وفي باب العباداتنجد أن الكبرى منها ذات أهداف أخلاقية منصوص عليها بجلاء:

فالصلاة وهي العبادة الأهم في حياة المسلم، لها وظيفة سامية في تكوين الوازع الذاتي، وتربية الضمير الديني على الابتعاد عن الرذائل. قال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ} (العنكبوت:45)،وهي كذلك تعين المسلم على مواجهة متاعب الحياة. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}(البقرة153).

والزكاة وهي العبادة التي تلي الصلاة في الأهمية،وسيلة لتطهير وتزكية النفس،وهما من الأهمية بمكان في عالم الأخلاق. قال تعالى:{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} (التوبة:103).

والصيام إنما يقصد به تدريب النفس على الكف عن شهواتها، وإدخال صاحبها في سلك المتقين،والتقوى جماع الأخلاق الإسلامية. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (البقرة:183).

والحج تدريب للمسلم على التطهر والتجرد والترفع عن زخارف الحياة،وضبط الجوارح. قال تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ} (البقرة:197).

- وفي مجال المال والاقتصاد كان للأخلاق حضورها سواءً في ميدان الإنتاج أم التداول أم التوزيع أم الاستهلاك.

ففي مجال الإنتاج يجب أن تكون السلعة المنتجة نافعة مفيدة،وأما ما كان ضاراً بالناس أو مؤذياً لهم فلا يجوز إنتاجه مهما كان سيجلب لصاحبه من أرباح مادية. قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا} (البقرة:219).

وفي مجال التبادل يحرم الإسلام الاحتكار والغش وكتمان العيب،وإنفاق السلعة بالحلف، واستغلال حاجة الآخرين أو استغلال بساطتهم أو طيشهم لخداعهم ففي الحديث: (لا يحتكر إلا خاطئ)،أي آثم. وفيه أيضاً: (مَنْ غشنا،فليس مِنَّا)، وفيه: (الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ للسلعة، مَمْحَقَةٌ للربح).

وفي مجال الملكية، لا يحل للمسلم تملك ثروةٍ من طريق خبيث. ولا يحل له أن يأخذ ما ليس له بحق كأن يأخذه بالعدوان أو الحيلة . ولا يجوز له تنمية ملكه بطريق محرمة،ومن ثمَّ حرم الله الربا والقمار والرشوة، وكل ما يعد من قبيل أكل المال بالباطل. وحرم كذلك الظلم بكل صوره وأشكاله، والضَّرر والضِّرار بكل ألوانه.

وفى مجال التوزيع أمر بالعدل بين الأولاد في العطية فقال ﷺ: (اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بين أَوْلَادِكُمْ)،كما وضع نظاماً دقيقاً في توزيع الميراث،والصدقات المفروضة،والغنائم والفيء والخراج والجزية وعطايا بيت المال.

وفي مجال الاستهلاك والإنفاق أمر الإسلام بالاعتدال والتوسط ،والابتعاد عن الترف ،والتبذير والإسراف والتقتير. قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا} (الإسراء: 29)،وقال أيضاً: {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} (الأعراف: 31). ومن هذا الباب تحريم الإسلام لاستعمال أواني الذهب والفضة مطلقاً، وكذا تحريمه لبس الذهب والحرير على الرجال.

- وفي مجال السياسة ربط الإسلام السياسة بالأخلاق، فرفض كل الأساليب القذرة للوصول إلى الغايات مهما كانت تلك الغايات نبيلة،ورفض مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" ،وبنى سياسته على الصدق والرحمة والعدل والإنصاف والمساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات والعقوبات، وفرض احترام الاتفاقات، والوفاء بالعهود. قال تعالى: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ من قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ على سَوَاءٍ إِنَّ اللّهَ لا يُحبُّ الخائنينَ} (الأنفال: 58)،وقال جل شأنه: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ} (الأنعام: 152).

- وفي مجال الحرب لم تنفصل سياسة الإسلام عن الأخلاق ،بل بقيت كما في السِّلم مبنية على العدل والرحمة والصدق والوفاء. قال تعالى: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} (البقرة: 190)،وقال جل في علاه: {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} (المائدة: 2). وجعل الإسلام الغاية من الحرب إعلاء كلمة الله ،والانتصار للحق والخير. قال تعالى: {الَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ} (النساء:76).

وفي السنة أن النبي ﷺكان إذا أمَّرَ أميراً على جَيْشٍ أو سَرِيَّةٍ أوْصَاهُ في خَاصَّتِهِ بتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ معه من المُسْلِمِينَ خَيْراً ثُمَّ قال: (اغْزُوا باسْمِ اللَّهِ في سَبِيلِ اللَّهِ ،قَاتِلُوا من كَفَرَ باللَّهِ ،اغْزُوا ولا تَغُلُّوا ولا تَغْدِرُوا ولا تَمْثُلُوا ولا تَقْتُلُوا وَلِيداً). وكذلك كان يفعل الخلفاء الراشدون المهديون من بعده ،فقد كانوا يوصون قوادهم وأمراءهم عند تسيير الجيوش بتقوى الله ، وعدم قتل غير المحارب ،وعدم الإفساد والإضرار بالممتلكات ،من ذلك ما جاء في وصية أبي بكر رضي الله عنه ليزيد بن أبي سفيان حين بعث جيوشاً إلى الشام ،فقد خرج يتبعه ويوصيه ،فكان مما قال: "إني أوصيك بعشر؛ لا تَقْتُلَنَّ صبياً ،ولا امرأةً ولا كبيراً هرماً ،ولا تَقْطَعَنَّ شجراً مثمراً ،ولا تُخْربن عامراً ،ولا تَعْقرنَّ شاةً ولا بعيراً إلا لمأكلةٍ ،ولا تَغْرقنَّ نخلاً ولا تحرقنَّه ،ولا تَغْلُلْ ولا تَجْبُنْ".

وهكذا فما من مجال من مجالات الحياة يمكن للمسلم أن يعيشها بمعزل عن القيم الأخلاقية والضوابط السلوكية ،وهذا الذي ذكرناه ما هو إلا غيض من فيض.

المحاضرة الثانية

أسس الأخلاق في الإسلام

يقوم النظام الأخلاقي في الإسلام على أربعة أسس هي: الأساس الاعتقادي، والأساس الواقعي، والأساس العلمي، ومراعاة الطبيعة الإنسانية.

أولاً - الأساس الاعتقادي:

يتمثل الأساس الاعتقادي للأخلاق الإسلامية في ثلاثة أركان هي:

الركن الأول: الإيمان بالله تعالى، وبأنه خالق الكون. وخالق الإنسان. وخالق الموت والحياة. والإيمان بأنه تعالى قد أحاط بكل شيءٍ علماً، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم ما يدور في خلجات النفس من خير أو شر. قال الله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ} (ق16).

الركن الثاني: الإيمان بأن الله عز وجل منذ أن أوجد الإنسان فوق هذه البسيطة هداهم لمعرفته، وعرفهم بطريق الخير والشر، والحق والباطل، من خلال الرسالات السماوية التي أرسلها للبشر. قال تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة:38). وقال سبحانه: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} (الشمس8).

كما أن الله سبحانه وهب الإنسان العقل والفطرة، وأوجد فيه القوة والقدرة على إدراك تلك الحقائق، من معرفة الله، ومعرفة الحق، ومعرفة الخير والشر.

ومن ثَمَّ جاء تكليفهم باتباع الحق والخير ، واجتناب الشر والباطل ، وإدراك ما عليهم من واجبات تجاه خالقهم، وتجاه المخلوقات الأخرى، وكذلك معرفة ما هو محرم عليهم، ومطلوب منهم اجتنابه.

الركن الثالث: الإيمان بالحياة الأخرى، وأنها إما نعيم، وإما جحيم. والنعيم لمن اتبع الحق ، وأقدم على فعل الخير، واجتناب الشر. والجحيم لمن اتبع الباطل، وارتكب ما حرم الله.

وكلاهما يكون بعد حساب دقيق بين يدي الخالق عز وجل يوم القيامة. قال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} (الزلزلة7-8).

إذن؛ فهذه الحياة ميدان عمل واختبار للإنسان . قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} (الملك:2). والحياة الأخرى للحساب والجزاء . قال تعالى: {وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} (الأنبياء47).

أهمية الأساس الاعتقادي:

هذا الأساس الاعتقادي بهذا المفهوم –المعتمد على الإيمان بالله، وبرسالاته، وبالحياة الأخرى، والحساب- في غاية الأهمية، بل إنه السند الذي يُعتمدُ عليه في إقامة النظام الأخلاقي الإسلامي، وفي عملية الالتزام به.

ومن غير هذا الأساس تفقد الأخلاق قدسيتها، وتأثيرها في الإنسان. بل يستحيل أن تطبق تطبيقاً عملياً دقيقاً في السر والعلن. ثم بقدر تمكن هذا الأساس في قلب المؤمن، ورسوخه فيه، وإيمانه الصادق به، يكون الامتثال والتحلي بتلك الفضائل والقيم.

وليس هذا أساسٌ للسلوك الأخلاقي فحسب، بل كذلك للحياة كلها؛ ومن غيره لا يكون للحياة معنى في الحقيقة.

ودليل ذلك ما نلحظه في سلوك الوجوديين وأمثالهم من الملاحدة -الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر- حيث القلق والحيرة والاضطراب يستبد بأعماق قلوبهم، وبتفكيرهم. وأما المؤمن فهو في طمأنينة ورضا، مهما واجهته من المصائب والمشاكل. وبقدر زيادة إيمانه، وتمكنه من قلبه، يكون شعوره بالرضا أعظم، وتسليمه بقضاء الله وقدره أتم.

والسر في ذلك هو أن في طبيعة الحياة الإنسانية جانباً لا يملؤه إلا الإيمان؛ فمن انعدم لديه الإيمان عانى من الفراغ في هذا الجانب، فأحس بالقلق والاضطراب.

وإن مما يؤكد ما سبق أن أولئك الناس -من غير المؤمنين- لا يعانون فقراً أو حرماناً أو مرضاً! وإنما يعانون من فقدان الطمأنينة التي تجلبها العقيدة الصحيحة، والإيمان القويم.

إن اعتماد الأخلاق على هذا الأساس العقدي، يضفي عليها طابعاً مميزاً من القداسة والاحترام، ويوقظ في صاحبه الوازع الديني (أو ما يسمى بالضمير) ويجعله أكثر استجابة لفعل الخير. وهذا ما يقر به الدكتور ألكسيس كاريل حيث يقول: "الفكرة المجردة لا تصبح عاملاً فعالاً إلا إذا تضمنت عنصراً دينياً، وهذا هو السبب في أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد تستحيل معه المقارنة، ولذلك لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق، إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية"

ثانياً - الأساس الواقعي:

دعا الإسلام إلى المثالية والسمو الروحي، وذم الذين أخلدوا إلى الأرض وشهواتها، إلا أن دعوته إلى المثالية هذه كانت واقعية في نفس الوقت، وكانت وسطاً بين نظرتين متطرفتين. والنظرتان المتطرفتان هما:

- الدعوات الروحية التي تدعو الإنسان إلى مجابهة الطبيعة والاستعلاء عليها، مهما كانت الضغوطات التي تواجهه في الحياة شديدة، وذلك لأنه بهذا الاستعلاء وبهذه المجابهة، يحقق لنفسه السعادة المنشودة والسمو الروحي الذي يطمح إليه.

- الدعوات المادية (أو دعوات الطبيعيين) والتي تدعو إلى الاستسلام للطبيعة، والاستجابة لها، لأن سعادة الإنسان -من وجهة نظرهم- إنما تتحقق من خلال هذه الاستجابة، والإخلاد إلى الأرض، ومن ثمَّ فإنهم يتجاهلون متطلبات الروح.

وأما الإسلام فكان موقفه من الطبيعة وسطاً معتدلاً بين هاتين النظرتين، وقد تجلى ذلك في:

- دعوته الإنسان إلى أن يكون سيداً على نفسه، فيضبط ميوله ورغباته ويوجهها وفقاً للمثل العليا التي جاء بها الإسلام، وأن يكون كذلك سيداً على الطبيعة، فيسخر مواردها في عمران الأرض، ونفع العباد. كما قال تعالى: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} {هود61}.

- دعوته إلى التأقلم والانسجام مع الطبيعة ومع الواقع، وعدم التصادم معها؛ وذلك عن طريق اتخاذ قواعد للسلوك تنسجم تمام الانسجام مع القوانين الأساسية للحياة البشرية. وهو ما سنتناوله في الفقرة التالية.

ثالثاً - الأساس العلمي:

ونعني به القوانين الأساسية للحياة البشرية، والتي أقام الإسلام نظامه الأخلاقي عليها وهي: (قانون المحافظة على الحياة، وقانون تكاثر النوع الإنساني، وقانون الارتقاء العقلي والروحي). وفيما يلي نتناول هذه القوانين بشيء من التفصيل.

القانون الأول: قانون المحافظة على الحياة:

ونعني به أن الإسلام اعتبر كل سلوك من شأنه أن يحافظ على الحياة وينميها سلوكاً أخلاقياً مشروعاً ومطلوباً. كما أنه اعتبر كل سلوك يضاد الحياة، أو يعوقها بصورة من الصور، سلوكاً غير أخلاقي، ومن ثمَّ فهو مرفوضٌ ومحرم.

ومن هنا كان القتل حراماً؛ لأنه سلوكٌ غير أخلاقي، وكذا تهديد الآخرين وإخافتهم، أو التحاسد والتباغض والتدابر، كلها محرماتٍ، ويعتبر سلوكاً غير أخلاقي.

فالإسلام جاء بتشريع كل ما من شأنه احترام حياة الناس، والمحافظة على أرواحهم وأعراضهم ودمائهم، والسعي لتحقيق ما فيه نفعهم.

القانون الثاني: تكاثر النوع الإنساني

ونعني به أن الإسلام اعتبر كل سلوك من شأنه أن يؤدي إلى إبقاء النوع الإنساني وتحسينه سلوكاً أخلاقياً راقياً ومطلوباً، ومن ثمَّ شرع الزواج، وحث عليه، ونهى عن التبتل أو الرهبانية، ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا، فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)، كما حث على حسن اختيار الزوجة، فقال صلى الله عليه وسلم: (تخيروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء، وأنكحوا إليهم)، وحث الآباء على تزويج بناتهم من أناس صالحين، ذوي دين وخلق فقال صلى الله عليه وسلم: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلاَّ تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفساد)، كما أن الإسلام - من جهة أخرى- منع كل سلوك من شأنه أن يحدَّ أو يعوق استمرار التناسل، كالرهبانية أو الخِصاء، لما فيه من المنافاة مع بقاء النوع الإنساني وتكاثره. ففي حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: "كنا نغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم ليس لنا نساء، فقلنا: يا رسول الله، ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك.

القانون الثالث: الارتقاء العقلي والروحي:

ونعني به أن الإسلام اعتبر كل سلوكٍ من شأنه أن يؤدي إلى السعادة، والإقبال على الحياة بمحبة وانشراح، وينمي العقل، ويحافظ عليه، سلوكاً أخلاقياً راقياً.

كما أنه اعتبر -من جهة أخرى- كل سلوك يضاد الحياة السعيدة، أو يضاد العقل، بأن يجعل الإنسان يعيش في عزلة من الناس، أو متشائماً قلقاً، أو يضر بعقله، أو يجعله مريضاً، أو مستسلماً للجهل والخرافات، فإنها جميعاً تعدُّ سلوكاً غير أخلاقي.

ومن ثَمَّ فقد حث الإسلام على العلم، وصلة الرحم، ومحبة الآخرين، والرحمة بهم، والرضا بقضاء الله وقدره. ففي الحديث: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)، وفي

آخر: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له)، فيتلقى المصائب بالرضا بقضاء الله، والتسليم لأمره، وأن ذلك هو الخير، وأن الحكمة كل الحكمة فيه، ولو خفي عليه وجه ذلك، فيحيا حياة سعيدة، وهذا ما لا يكون إلا للمؤمن.

كما حرم الإسلام الانتحار، وتعاطي المسكرات والمخدرات، وما من شأنه أن يضر الإنسان في بدنه أو عقله. قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} (البقرة:219). وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} (المائدة:90-91). ومثل هذه النصوص كثيرة جداً.

وعليه فإن الإسلام يعد الخروج على القوانين تعدياً وخروجاً عن جادة الحياة المستقيمة.

رابعاً: مراعاة الطبيعة الإنسانية:

وهذا هو الأساس الرابع الذي يبني الإسلام نظامه الأخلاقي عليه، ونعني به أن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه روحٌ وجسدٌ، وعقلٌ وشهوةٌ، وقلبٌ ومشاعرُ وعواطفُ، وأن هناك صراعاً بين طبيعة الإنسان وتكوينه المادي الذي يميل إلى الأرض والتراب الذي خُلق منه، فينساق للأهواء والشهوات، وروحه العلوية التي هي من نفخ الإله، وتدعوه إلى السمو والرقي والمثالية.

ومن ثَمَّ فقد وضع الإسلام نظاماً دقيقاً للتنسيق بين هاتين الطبيعتين في الإنسان، ووجهه إلى السلوك الذي يليق به بصفته المخلوق الذي كرمه الله، وبصفته الكائن الأشرف على ظهر هذه البسيطة، وبصفته من أتباع خاتمة الرسالات السماوية.

ولا يخفى أهمية هذا الأساس في الدراسات الأخلاقية، لما بين سلوك الإنسان، وطبيعته التي جبله الله عليها من صلة وثيقة، ولأن نجاح أي نظام أخلاقي يتوقف على مدى انسجامه مع واقع هذه الطبيعة البشرية.

المحاضرة الثالثة

خصائص الأخلاق الإسلامية

تمتاز الأخلاق الإسلامية بجملة من الخصائص تميزها عن غيرها من الأنظمة الأخلاقية، وهي:

أولاً- الانبثاق عن عقيدة الإسلام:

الأخلاق الإسلامية مرتبطة بالعقيدة ارتباطاً قوياً وعميقاً؛ بحيث يستحيل الفصل بينهما. والنصوص التي تربط بين الإيمان وحسن الخُلق كثيرة جداً؛ حتى إنها لتجعل الإيمان، هو نفسه حسن الخُلق، وذلك لأن حسن الخلق يقتضي أول ما يقتضي شُكر المنْعِم (الإله)، والاعتراف بفضله، والثناء عليه، والوقوف عند حدوده بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. وأما التمرد على أوامره ونواهيه، فهو أعظم العقوق، وأفحش الخُلق. يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: "حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق، وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه، وهي بجملتها ثمرة حُسْن الخلق، وسوء الخلق، فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق. قال الله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَآءَ ذالِكَ فَأُوْلَائِكَ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ...} (المؤمنون: 1-5)، وقال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً... وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَاهاً ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ...} (الفرقان:63-67). من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض، فليشتغل بتحصيل ما فقده، وحفظ ما وجده. وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق، فقال صلى الله عليه وسلم: (من كان يُؤْمِنُ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فلا يُؤْذِ جَارَهُ وَمَنْ كان يُؤْمِنُ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ وَمَنْ كان يُؤْمِنُ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أو لِيَصْمُتْ). وقال: (لَا يُؤْمِنُ أحدكم حتى يُحِبَّ لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ). وقال: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا)

ويقول الداعية المعاصر الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: "الإيمان قوة عاصمة عن الدنايا، دافعة إلى المكرمات، ومن ثمّ فإن الله عندما يدعو عباده إلى خير، أو يُنفرهم من شر، يجعل ذلك مقتضى الإيمان المستقر في قلوبهم. وما أكثر ما يقول في كتابه: {يا أيهاالذين آمنوا} ثم يذكر بعدُ ما يُكلفهم به، مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ

وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} (التوبة؛119)، و{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} (الأحزاب؛70) ...وقد وضح صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم أن الإيمانَ القوي، يَلِدُ الخُلُقَ القويَّ حَتْماً، وأن انهيار الأخلاق مَردُّهُ إلى ضَعف الإيمان، أو فُقدانه، بحسب تفاقم الشر أو تفاهته... فالرجلُ الصفيقُ الوجه، المعوجُ السلوك، الذي يقترف الرذائل غير آبه لأحد، يقول رسول الإسلام في وصف حاله: (الحياء والإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر)!. والرجل الذي ينكب جيرانه ويرميهم بالسوء، يحكم الدين عليه حكماً قاسياً، فيقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : (واللّه لَا يُؤْمِنُ واللّه لَا يُؤْمِنُ واللّه لَا يُؤْمِنُ قِيلَ وَمَنْ يا رَسُولَ اللّهِ قال الذي لَا يَأمَنُ جَارُهُ بوائقه). وتجد الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يعلم أتباعه الإعراض عن اللغو، ومجانبة الثرثرة والهذر ... وهكذا يمضي في غرس الفضائل وتعهدها حتى تؤتي ثمارها، معتمداً على صدق الإيمان وكماله..".

إذاً فالدين هو مصدر الأخلاق الفاضلة، وهو الرقيب عليها، وهو المقوِّم لها إذا انحرفت.

ثانياً- الشمول:

تتنوع الأخلاق الإسلامية وتتسع لتشمل جميع المجالات، ومن هذه المجالات:

1- خُلُق مع الله ومع النبي عليه الصلاة والسلام: وردت نصوص كثيرة من الكتاب والسنة تبين أن خُلُق المسلم مع الله ومع النبي عليه الصلاة والسلام يتمثل في السمع والطاعة، والتسليم والرضا بما جاء به. من ذلك قول الله تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} (النور؛51)، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} (الحجرات؛1). وكذلك تعظيم شعائر الله (بتعظيم كتابه، وتعظيم بيوته، وتعظيم حرماته) والنصح لله ولكتابه ولرسوله. عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال النبي عليه الصلاة والسلام: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ) قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: (لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ). وتعني أن عماد أمر الدين النصيحة. وتكون النصيحة لله بتقديم حقه على حق الناس. ولكتابه بتعلمه وتعليمه، وتفهم معانيه، والعمل بما فيه، والدفاع عنه. ولرسوله بتعظيمه ونصرة دينه، وإحياء سنته بتعلمها وتعليمها، والاقتداء به في أقواله وأفعاله، ومحبته ومحبة أتباعه.

2- خُلُق مع أولياء الأمور: ويتمثل في طاعة أوامرهم في المعروف، وبذل النصح لهم. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ} (النساء؛59). وكما في رأينا الحديث السابق أن من الدين: النَّصِيحَةُ لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ. وتعني إعانتهم على ما حملوا القيام به من المسؤوليات، وتنبيههم عند الغفلة، وجمع الكلمة عليهم، ودفعهم عن الظلم بأحسن أسلوب وألطف عبارة.

3- خُلُق مع عامة المسلمين: النصوص في بيان ما ينبغي أن يتحلى به المسلم مع المسلم ،من الأخوة والإيثار والنصح والمحبة والتعاون والنصرة والولاية أكثر من أن تحصى. من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ ولا يَحْقِرُهُ ... بِحَسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ). وفي الحديث السابق: النَّصيحَةُ لعامة المسلمينَ. وتعني الشفقة عليهم ،والسعي فيما ينفعهم ،وكف الأذى عنهم ،وأن يحب لهم ما يحب لنفسه.

4- خُلُق مع غير المسلم: وردت نصوص عديدة تبين ما ينبغي أن يتحلى به المسلم مع غير المسلم من العدل والإحسان وحسن المعاملة ،من ذلك قوله تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (الممتحنة8)، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا من ظَلَمَ مُعَاهِدًا أو انْتَقَصَهُ أو كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أو أَخَذَ منه شيئا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يوم الْقِيَامَةِ). والمعاهَد من يعيش في كنف المجتمع المسلم مسالماً.

5- خلق مع الكبير والصغير: يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ليس مِنَّا من لم يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا). وقوله: (ليس منا) يدل على عِظم وخطورة هذه الجريمة الأخلاقية. فهو ليس على أخلاق المسلمين ،ولا على نهجهم ومسلكهم في الحياة. وإذا لم يكن على أخلاق المسلمين ومسلكهم ،فليحذر من عاقبة أمره ،والطريق الذي اختاره لنفسه.

وهناك خُلُق مع الوالدين ،ومع الأبناء والبنات ،ومع الزوج والقرابة، ومع الضيف والمعلم والصديق، ومع البهائم والجمادات ... وهكذا. يقول الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: "قد تكون لكل دين شعائر خاصة به ،تعتبر سمات مميزة له. ولا شك أن في الإسلام طاعات معينة ،ألزم بها أتباعه ،وتعتبر فيما بينهم أموراً مقررة لا صلة لغيرهم بها ، غير أن التعاليم الخُلُقية ليست من هذا القبيل؛ فالمسلم مكلف أن يلقى أهل الأرض قاطبة بفضائل لا ترقى إليها شبهة ،فالصدق واجب على المسلم مع المسلم وغيره ،والسماحة والوفاء والمروءة والتعاون والكرم.. الخ. وقد أمر القرآن الكريم ألا نتورط مع اليهود أو النصارى في مجادلات تهيج الخصومات ولا تجدي الأديان شيئاً. قال الله تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (العنكبوت46) ،واستغرب من أتباع موسى وعيسى أن يشتبكوا مع المسلمين في منازعات من هذا النوع الحاد: {قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} (البقرة139). وحدث أن يهودياً كان له دَيْنٌ على النبي ، فجاء يتقاضاه قائلاً: إنكم يا بني عبد المطلب قوم مُطل!! فرأى عمر ابن الخطاب أن يُؤدب هذا المتطاول على مقام الرسول ،وهَمَّ بسيفه يبغي قتله. لكن الرسول صلى الله عليه وسلم أسكت عمر قائلاً: (أنا وهو أولى منك بغير هذا ،تأمره بحُسن التقاضي ،وتأمرني بحُسن الأداء) ،وقد

أمر الإسلام بالعدل ولو مع فاجر أو كافر. قال عليه الصلاة والسلام: (دعوة المظلوم مُستجابة، وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه). وبهذه النصوص، مَنع الإسلام أبناءه أن يقترفوا أية إساءة نحو مخالفيهم في الدين. ومن آيات حسن الخلق مع أهل الأديان الأخرى ما ورد عن ابن عمر: أنه ذبحت له شاة في أهله ؟ فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)... ويؤكد هذه الحقيقة حديث الرسول لقومه وعشيرته، فقد رشحتهم مكانتهم في جزيرة العرب لسيادتها، وتولي مقاليد الحكم بها. ولكن النبي أفهمهم ألا دوام لملكهم إلا بالخُلُق وحده... ومن أقوال الإمام ابن تيمية رحمه الله: (إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة. ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة). إن الخلق في منابع الإسلام الأولى من كتاب وسنة هو الدين كله، وهو الدنيا كلها".

ثالثاً- الثبات:

يقصد بالثبات أن الفضائل الأساسية للمجتمع من صدق ووفاء وأمانة وعفة وإيثار مرتبطة بالنظام العام للشريعة، وهي أمور لا يستغني عنها مجتمع كريم مهما تطورت الحياة وتقدم العلم، بل تظل قيماً فاضلة ثابتة، لا تتغير ولا تتأثر بتغير الظروف الاجتماعية والأحوال الاقتصادية. ولعل السبب الذي يجعل هذه الأخلاق ثابتة هو:

1- أنها مرتبطة بالفطرة البشرية، وهي تتصف بالثبات، كما في الحديث: (كل مولود يولد على الفطرة). غير أن ذلك وحده لا يكفي، فكم من الأمور التي هي في أصلها نابعة من الفطرة إلا أنها تغيرت وانحرفت بفعل الأهواء والمصالح! ومن هنا جاءت أهمية السبب الآخر.

2- كونها نابعة من الدين الذي هو من عند الله سبحانه وتعالى، وهو أعلم بما يصلح شأن الإنسان ويحقق له السعادة والخير. قال تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ} (الملك14)، والدين بمثابة السياج الذي يحافظ على متطلبات الفطرة، ويعزز وجودها، ويحميها من الانحراف.

ويترتب على خاصية الثبات هذه أن الأخلاق مختلفة عن التقاليد؛ لأن التقاليد تتغير بين الفينة والأخرى، بتغير مسوغات وجودها، وليس كذلك الأخلاق، لأنها تقوم على أسس ثابتة كالحق والعدل والخير.

رابعاً- الجمع بين الواقعية والمثالية:

فأما كون الأخلاق في الإسلام واقعية فتعني أنها؛ عملية وقابلة للتطبيق، ولا يستعصي على أحد تطبيقها وتجسيدها في حياته.

وأما كونها في الوقت ذاته مثاليةً أيضاً فتعني أن في الناس من تتوق نفسه إلى معالي الأمور ،ولا يرضى لنفسه بأن يكون كعامة الناس. فهو أبداً يتوق إلى المعالي ،وله نفسٌ أبيةٌ تسعى دائماً للتحلي بالفضائل والقيم السامية ،ففسح الشرع في ذلك.

فإذاً الإسلام راعى بتشريعه استعدادات هذا وذاك ،ولم يحمل الناس على ما لا يطيقون ،أو ما يمكن أن تمله نفوسهم وتتقاصر عنه. ومن ثَمَّ فقد شرع العدل ،بأن يصل كل ذي حق إلى حقه ،غير أنه حثَّه في الوقت ذاته على الإحسان ،بأن يصفح ويتجاوز ويضحي ،وهي مرتبة فوق العدل. قال تعالى في تقرير قاعدة العدل: { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} (المائدة8). وقال جل جلاله في تقرير مبدأ المثالية والإحسان: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} (الشُّورى40) ،وقال أيضاً: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ،وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} (النحل126).

والأخلاق الإسلامية في هذا يختلف عن الدعوات المثالية التي نادى بها بعض الفلاسفة من أمثال أفلاطون في كتابه الجمهورية الفاضلة ،إذ إنها مما لا يطيقها معظم الناس ،ولا تستقيم معها حياتهم ،وسرعان ما يملونها ،وتسأم من فعلها نفوسهم لما فيها من تكلف شديد. قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} (التغابن16). ويقول عليه الصلاة والسلام: (عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ مِنْ الْأَعْمَال فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا).

خامساً- الوسطية:

وتعني أن الأخلاق الإسلامية وسطٌ بين طرفين متضادين. وتتجلى هذه الوسطية والاعتدال في تلبيته لمختلف حاجات الإنسان ورغباته ولكن بعد ضبطها بما يحافظ عليها ويبقيها ضمن دائرة النفع والخير. من ذلك على سبيل المثال:

1- الحكمة: فقد اعتبرها الإسلام فضيلة مطلوبة ،وتأتي بين رذيلتين منكرتين ،هما: الخِبُّ والبَلَه. قال تعالى في الثناء على الحكمة: {يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} (البقرة269). والخِبُّ هو: المبالغة في الاتصاف بالمكر والحيلة وسوء الظن. والبله هو: المبالغة في السذاجة والسفه.

2- السخاء: وهو خلقٌ كريمٌ ويقع بين رذيلتين ،هما: الإسراف ،والتقتير. قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا} (الإسراء29)، وقال: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} (الفرقان67).

3- الشجاعة، وهي خلقٌ كريمٌ ووسطٌ بين رذيلتين هما: التهور ،والجبن. والتهور هو: الزيادة في الإقدام على الأمور المحظورة التي يوجب العقل الإحجام عنها. قال تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} (البقرة195). والجبن هو: المبالغة في الخوف والحذر بما تأباه

الرجولة والمروءة. قال تعالى في وصف المنافقين: {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} (التوبة:87).

4- العفة، وهي خلقٌ كريمٌ ،وتأتي وسطاً بين رذيلتي الشره ،والخمود. والشره هو: المبالغة في طلب الشهوة واللذات. والخمود هو: قصور الشهوة عن دفعه نحو تحصيل أسبابها.

5- الحياء، وهو خلقٌ كريمٌ ،ويأتي وسطاً بين رذيلتي الوقاحة أو صفاقة الوجه من جهة، والخور والمهانة من جهة أخرى.

6- التواضع، وهو خلقٌ كريمٌ ،ويأتي وسطاً بين رذيلتي الكِبْر والعلو من جهة، والذِّلة والحقارة من جهة أخرى.

وهكذا فما من صفة أخلاقية جاء بها الإسلام أو أقرها ،إلا ونجدها وسطاً تستجيب لدواعي الفطرة في الإنسان ،وتحقق له ما فيه المصلحة والخير.